الحمق والجنون في مرايا الأدب العربي القديم
السِّمة المُفارِقة لبلاغة العقل المعكوسة

د.فيصل أبو الطفيل

جامعة القاضي عياض، مراكش/ المغرب

ملخص:

إن العقل لا يقوم إلا بالجنون، ولا يتشجع على المغامرة إلا بطرق بابه، وفي ذلك يقول بكر بن المعتمر: "إذا كان العقل تسعة أجزاء احتاج إلى جزء من الحمق يتقدم في الأمور، فإن العاقل أبدا مُتَوَانٍ، مُتوقف، مُتَخوّف".

ويهدف هذه البحث إلى تسليط الضوء على المنطقة التي يتاخم فيها الجنون العقل، فيجاوره ويسانده حفاظا على رابطة قوية تجمعهما وتوحدهما وتجعل منهما وجهين لعملة واحدة؛ تيسّر المرور والعبور من العقل إلى الجنون ومن الجنون إلى العقل، داخل العقل وخارج الجنون وخارج العقل وداخل الجنون.

وبهذا المعنى ينبغي أن يُنظَرُ إلى الجنون على أنه دعامة للعقل وتجسيد له في منعطفات التفكير القصوى ومزية حافظة لوعائه. مثلما يتحتّم النظر إليه كشكل من أشكال العقل ووجهة نظر فيه؛ يركن إليه ويلوذ به في منطقة التماسّ. ومن ثم، ليس الجنون انكسارا للعقل، ولكنه انتصار له، طالما هو قوته الحية والحيوية وفقا لعبارة ميشيل فوكو.

وتبعا لما سبق يستبصر هذه البحث أفقا مشرقا تنكشف فيه صور الجنون في الأدب العربي القديم، من خلال استعراض مجموعة من النماذج المستقاة منه: شعره ونثره (أمثال-حكم-خبر-حكاية-أقوال...) وتحليلها بما يتفق وأسئلة

عصرنا التي ما فتئت تطرح نفسها بقوة علينا، آملين أن نحظى بحرية الإبحار في محيط الجنون،قاصدين مرفأ العقل، ومنقّبين فيهما عن المخبوء والمكنون.

مقدمة

اقترن ذكر الحمق بالجنون في التراث العربي اقترانا يصعب معه التفريق بينهما بما يسمح بتمييز أحدهما عن الآخر من حيث الحدّ والمفهوم، والسبب في ذلك اشتراك الأحمق والمجنون في مجموعة من الصفات التي تدل على مخالفتهما معا للسائد والمعروف والمشهور والمألوف ضمن النسق الاجتماعي الذي يحدد فيه العقلاءُ مظاهر السلوك وأنواع المعاملات داخل الميدان الفكري والأخلاقي، حيث يتم إقصاء عوالم اللاعقل ويصبح الأحمق عامة والمجنون خاصة غريبين في عرف ممارسات من يملك شعلة العقل، فيسخرها في الحكم على الناس والأشياء بطريقة معقولة ومقبولة.

وإذا كان المؤلفون العرب القدامى قد اهتموا بالتأليف في موضوع الحمق والجنون، إما بشكل مباشر (أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي-الفائق في أخبار المائق، لابن الأنباري-عقلاء المجانين، النيسابوري...)، أو بتخصيص فصول وأبواب داخل كتب الأدب (البيان والتبيين-الأغاني-العقد الفريد...)، فإن هذا الموضوع في زماننا المعاصر "لم يقع الالتفاتُ إليه الالتفاتَ المرجوَّ حتى ينتفض عنه غبار الترك وتنقشع عنه غشاوة النسيان"[1].

الحمق والجنون: مقاربة الحدّ والمفهوم

أولا- في الحُمْق والأَحْمَق:

[1]- أحمد خصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع، بيروت، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ، ط1، 1993م، ص: 5.

"قيل لإبراهيم النَّظَّام (221هـ): ما حَدُّ الحمق؟ فقال: سألتني عما ليس له حَدٌّ"[2].

فالنظّام-وهو من هو علما وعلوَّ مرتبة في جماعة المعتزلة- لم يقو على تقديم جواب شاف ودقيق يردّ به على من استفسره عن تعريف الحمق، ويُستفاد من جوابه أن تحديد مفهوم الحمق أمر مستحيل نظرا لتشعّب معانيه وتنوع مظاهره، فليست هناك أمداء تحصره أو حدود تضبطه.

ولعله من الطريف والظريف أن يَقْرِنَ ابن الأعرابي الحُمْقَ بالتجارة، يقول:"الحماقة مأخوذة من حَمِقَتِ السوقُ إذا كسدتْ، فكأنه[أي الأحمق] كاسد العقل والرأي فلا يُشاوَرُ ولا يُلتفتُ إليه في أمر حرب"[3]. وتبعا لهذا التعريف يغدو الحمق تجارة بائرة في سوق العقول النيرّة، حُكِم على صاحبها بالكساد، ونُسِبتْ مُشاورته إلى الفساد، وكأن الأحمق "فسد عقله حتى كسد"[4]. ولذلك "لا يُشاور و لا يؤامر، بل يركب رأيه غَوِيَ أَم رَشَدَ"[5].

وقد عرّف الجاحظ الأحمق بقوله: "هو الذي يتكلم بالصواب الجيد ثم يجيء بخطأ فاحش"[6]. وينطوي تعريف الجاحظ للأحمق على مجموعة من الإشارات:

*أن كلام الأحمق ليس كله خارجا عن المنطق، بل فيه الصواب الموافق، وفيه الخطأ المخالف.

*أن كلام الأحمق مبني على الجمع بين المتناقضات والمزج بين المنطق واللامنطق (أي بين ما يقبله العقل وما يرفضه).

*أن الخطأ الفاحش في كلام الأحمق يلغي ويغطي ما تكلم به من صواب.

*أن لكلامه ترتيبا خادعا يبدأ فيه بالصواب ويختم بالخطأ.

2- ابن الجوزي (597هـ)، أخبار الحمقى والمغفلين، شرحه: عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبناني، ط1، 1990م، ص: 26. ومما يؤكد أن مفهوم الحمق عائم ولا نهائي، كثرة أسماء الأحمق في اللغة العربية، وقد دفعت هذه الكثرة ابن الأنباري إلى تأليف كتاب وسمه بـ " الفائق في أخبار المائق". ينظر: ابن الأنباري (577هـ)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، الزرقاء، الأردن، مكتبة المنار، ط3، 1985م، ص: 10.كما عقد ابن الجوزي بابا مستقلا سمّاه: "في ذكر أسماء الأحمق". ينظر: ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، مرجع سابق، ص: 28.

3- ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، مرجع سابق، ص: 23.

4- جمال الدين بن منظور الأنصاري (711هـ) (1-15)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط1، 1990م، مادة (حمق).

5- ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة (هجج).

6- الجاحظ (255هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، لبنان، دار الجيل، د.ط، 1416هـ- 1996م، 249/1. وقد أرجع ابن منظور العلة في تسمية الأحمق بهذا الاسم إلى "أنه يعُرك في أول مَجْلِسِهِ بتعاقُلِه، فإذا انْتَهَى إلى آخِرِ كَلَامِهِ تبيَّن حُمْقُهُ فَقَدْ غَرَّكَ بأَول كَلَامِهِ". ابن منظور، لسان العرب، مرجع

*أن الصواب الجيد في كلام الأحمق لا يشفع له لتبرئته من حمقه.

وكل الإشارات السابقة تفيد أن "مأتى الحمق (...)الخروج عن حدود الاعتدال وجهل مقادير الأشياء التي ينبغي التزامها"[7].

أنواع الحمق

الحمق أنواع ودرجات، فمنه"ما كان مجبولا في الطباع (...) ومنه ما يعتري الفرد لعلّة من العِلل (...) ومنه ما يُلِمّ بالإنسان من حوادث طارئات تخرجه من طوره المألوف"[8].

فمن مظاهر الأول ما يكون وراثيا، كما في صيغة "مِحْمَاق"، و"المِحْمَاق: التي عادتها أن تلد الحمقى"[9]. وقد يكون غريزة كما ورد في قول المأمون: "وأما الحمق فإنه غريزة"[10]. ومن مظاهر الثاني ما يأتيه صاحبه سهوا منه أو غفلة، من ذلك الحكاية التي رواها ابن عبد البر، قال: "مَرَّ بالشعبي يوماً رجلٌ يقود حماراً، فقال له: ما اسمك؟ قال: وَردان. قال:وما اسم حمارك؟ قال:عِمران. قال الشعبي: واخلافاه!!"[11].

وأما النوع الثالث فيحاصر صاحبه في الزاوية، وتدهمه المفاجأة فتكون ردة فعله خارجة عن المألوف غير متوقعة، من ذلك أن رجلا خطب خطبة نكاح فقال بعد أن أحصر: "لقِّنُوا موتاكم قولَ لا إله إلا الله"[12].وحُمْقُ الخطيب في هذه الحكاية راجع بالأساس إلى عدم مطابقة المقال للمقام، "فهو بذلك ينقل الموقف من مناسبة فرح إلى مأتم"[13].

ليس الحمق إذن محصورا على نوع معين، ولا حكرا على فئة بعينها، ولكنه ضروب شتى

سابق، مادة (حمق). وبيّنّ أن تعريف الجاحظ للأحمق يسير في الاتجاه نفسه الذي قدّمه ابن منظور من حيث تبريرُ التسمية.

7- أحمد خصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي...، مرجع سابق، ص ص: 23-24.بتصرف.

8- المرجع نفسه، ص: 75.

9- الجاحظ ، البيان والتبيين، مرجع سابق، 185/1. وضد المحماق (المنجاب): "وامرأة مِنْجَاب: ذات أولاد نجباء".ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة (نجب).

10- ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، مرجع سابق، ص: 25.

11- ابن عبد البر القرطبي (463هـ)، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، تحقيق: محمد مرسي الخولي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1982م، 561/2. وفي الهامش رقم (5) من الصفحة نفسها، وضّح المحقق مقصود الشعبي في قوله: (واخلافاه)، قال: "يعني أنّ ذلك خلاف الذي يجب، ولو تُبُودلت الأسماء لانتفت الغرابة".

12- الجاحظ ، البيان والتبيين، مرجع سابق، 250/2.

13- أحمد خصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي...، مرجع سابق، ص: 92.

تتمظهر في "حماقات لا تعدّ و لا تحصى، لها وجوه متعددة بعدد الطبائع الموجودة في العالم"[14].

الشيخ الجوّال: بين حماقة الأفعال وحكمة الأقوال

يقول ميشيل فوكو: "إن الصور العبثية للحماقات العمياء هي المعرفة الكبيرة للعالم"[15]. وهو قول يمكن أن يشكل مدخلا صحيحا ومناسبا ندلف منه إلى قصة الشاعر طرفة بن العبد البكري في رحلته مع خاله المتلمس، بعد أن زودهما عمرو بن هند برسالتين يحملانها إلى عاملِه على هَجَر مدّعيا أن مضمون الرسالتين توصية بعطاء ومعروف تكريما للشاعريْن.

ففي ما رواه المتلمس، قال: ... قلت لطرفة حين قمنا: يا طرفة إني أخاف عليك من نظرته[أي عمرو بن هند] إليك، مع ما قلت لأخيه، قال: كلا، قال: فكتب له كتاباً إلى المكَعْبَر - وكان عامله على البحرين وعمان - لي كتاب ولطرفة كتاب، فخرجنا حتى إذا أنا بشيخ عن يساري يتبرز ومعه كِسْرَة يأكلها ويَقْصَع القمل، فقلت: تالله إن رأيت شيخاً أَحْمَقَ وأضعَفَ وأقلَّ عَقْلاً منك، قال: ما تنكر؟ قلت تتبرز وتأكل وتَقْصع القمل، قال: أخرج خبيثاً، وأدخِلُ طيباً، وأقْتُلُ عدواً، وأحْمَقُ مني وألْأَم حاملُ حَتْفِهِ بيمينه لا يدري ما فيه، فنبهني وكأنما كنت نائماً، فإذا أنا بغلام من أهل الحِيرة يَسْقي غنيمة له من نهر الحيرة، فقلت: ياغلام أتقرأ؟ قال: نعم، قلت: اقرأ، فإذا فيه "باسمك اللهم، من عمرو بن هند إلى المُكَعْبر، إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس، فاقْطَعْ يديه ورجليه وادفِنْهُ حَيّاً، فألقيتُ الصحيفة في النهر"[16].

تضمنت الحكاية السابقة ثلاث صور عبثية لثلاث حماقات عمياء، تخفي وراءها حِكَما بالغة لا تدرك بمجرد رؤية البصر، ولكن يُتوصل إليها بكشف المغطى عن مصموتاتها التي تبرزها أقوالُ الشيخِ: الأحمقِ على مستوى الأفعال، والعاقلِ الحكيم على مستوى الأقوال

14- ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط1، 2006م، ص: 59.

15- المرجع نفسه، ص: 43.

16- الميداني (518هـ)، مجمع الأمثال، (1-2)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، لبنان، دار المعرفة، دط، دت، 399/1. وقد وردت الحكاية أيضا عند: أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (328هـ)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، دار المعارف، ط4، 1980م، ص: 116.

التي تؤَوِّلُ غرابة الأفعال وتفصح عن عاقل فطن متنكر في ثوب أحمق غافل.

لقد وصف المتلمس الشيخ بالحمق وضعف عقله وقلته، لا لشيء سوى ما رأت عينه منه من سلوكات لا تجتمع في منطق العقل، لأنها مزيج غير متجانس من أفعال أُنجزتْ دفعة واحدة وفي وقت واحد: قضاء الحاجة وتناول الطعام وإزالة القمل. ناهيك عن ربط المتلمس إتيان هذه الأفعال-في الحكم على الشيخ بالحمق- بتقدّم الشيخ في العمر، وهو ما جعل المتلمس يميل إلى ترجيح حمق الشيخ بسبب بلوغه أرذل العمر وظهور آثار التخريف والبله في ما يقوم به.

لقد شكّلت أفعال الشيخ في جملتها مصدر دهشة لا مثيل لها بالنسبة للمتلمس، ولذلك سارع إلى رفضها وإنكارها بتوجيه القول إلى الشيخ ولومه على تصرفاته الهوجاء: (تالله إن رأيت شيخاً أَحْمَقَ وأضعَفَ وأقلَّ عَقْلاً منك)، وهو قول ينمّ عن بلوغ الشيخ قمة الحمق ونقصان العقل: فالذي يقضي حاجته يمارس عملية إفراغ بطنه، ومن يتناول الطعام يسعى لملء بطنه، إن الأمر هنا يتعلق بالجمع بين فعلين متنافرين متناقضين، إنه شبيه بقربة ماء مثقوبة كلما ملئت أفرغت.فإذا أضيف إلى الفعلين السابقين فعل إزالة القمل، وهو فعل تستخدم فيه إحدى اليدين، فهذا يعني أن اليد الأخرى تضطلع بوظيفتين..."إن الأمر يتعلق بمجموع فاقد لكل توازن"[17].

وبالعودة إلى جواب الشيخ يتضح أن ما يظن أنه من الحمق هو حكمة متسترة، حجبتها أفعال غريبة: (قال [الشيخ]: أخرج خبيثاً، وأدخِلُ طيباً، وأقْتُلُ عدواً)، فنبّه بذلك إلى عودة هادئة إلى العقل، وهي عودة مسنودة ببلاغة محكمة يعكسها خطاب مقتضب في عبارة تبرز حصافة الشيخ ومعرفته بصواب أقواله وصحة مطابقتها لأفعاله.ويأتي بعد ذلك وضع الأمور في نصابها بتقديم البديل المعكوس، وذلك بتنبيه الآخر (المتلمس) إلى الحقيقة المرة: الأحمق الحقيقي من يصف الشيخ بالحمق، ولا يدري أن حمقه سيكون سببا في هلاكه، وبعبارة الشيخ: (وأحْمَقُ مني وألْأَم حاملُ حَتْفِهِ بيمينه لا يدري ما فيه).وقد انتهت الحكاية بتأكد المتلمس من مضمون الصحيفة من جهة، ومن رجحان حكمة الشيخ وفطنته على حمقه

17- ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مرجع سابق، ص: 50.

وتغافله، إذ لولا ما حذره الشيخ منه لكان في عداد الموتى شأنه شأن ابن أخته طرفة.

ثانيا- في الجنون والمجنون:

بالعودة إلى المداخل المعجمية لمادة (جنن) في لسان العرب نجد ما يلي:

"جَنَّ الشيءَ يَجُنُّه جَنّاً: سَتَره (...) وجِنُّ اللَّيْلِ وجُنونُه وجَنانُه: شدَّةُ ظُلْمتِه واذْلِهْمامُه (...)وجُنَّ الرجلُ جُنوناً وأَجنَّه اللهُ، فَهُوَ مجنونٌ (...)وتَجَنَّن عَلَيْهِ وتَجانَّ وتجانَنَ: أَرَى مِنْ نفسِه أَنه مجنونٌ (...)وَقِيلَ: جُنَّ النَّبْتُ جُنوناً غلُظ واكْتَهل. وَقَالَ أَبو حَنِيفَةَ: نَخْلَةٌ مَجْنونة إِذَا طَالَتْ (...)وَجُنُونُ الذُّباب: كثرةُ تَرَنُّمِه. وجُنَّ الذُّبابُ أَي كثُرَ صَوْتُهُ"[18]. وتحدّث الجاحظ عن الناقة المجنونة التي تفرط في المرَح والنَّشاط"[19].

إنّ أول معنى يستشف من هذه المداخل هو ارتباط الجذر (ج ن ن) بالستر والإخفاء والإظلام، وبذلك يغدو الجنون حجبا للعقل وظلمة له وإقصاء لحضوره. ويوصف النبات بالجنون إذا نما وكثر والتفّ، مثلما توصف النخلة والناقة بالجنون إذا تسامقت الأولى في طولها، وأفرطت الثانية في سرعتها ونشاطها، وقد نُسِب الذباب في قوة صوته وترنّمه إلى الجنون.وتبعا لذلك، "فإن الأمر الملاحظ يوصف بالجنون كلما تجاوز الحدود المعتادة"[20].

ومن الجنون ما لا يتحكّم فيه الإنسان، سيما إذا كان بسبب علة أو لوثة أو عطب أصابت عقله وأقفلت أبوابه، فرمت به في هاوية اللاعقل، ومنه ما يكون مقصودا من صاحبه حينما يلجأ إلى "التّجنُّن أو التّجانُن"[21]، سعيا إلى تحصيل منفعة أو دفع شر محدق.

ومن جنون الطبيعة في نبتها ونخلها وذبابها ونوقها ينقلنا أبو حيان التوحيدي إلى "جنون الكلام"، حيث نقل عن عليّ بن القاسم، وصفه الصاحب بن عباد بأنه: "مجنون الكلام،

18- ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة (جنن).

19- الجاحظ ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، لبنان، دار الجيل، دط، 1416هـ - 1996م. 3/108.

20- أحمد خصخوصي، الحمق والجنون في التراث العربي...، مرجع سابق، ص: 44.

21- يقول عبد الفتاح كيليطو بهذا الصدد: "التجانن أنفع من التعاقل".ينظر: عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل- دراسات في السرد العربي، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، ، ط1، 1988م. ص: 47.

تارة تبدو لك منه بلاغة قسّ، وتارة يلقاك بعيّ باقل"[22]. والظاهر أن جنون الصاحب في كلامه راجع إلى عدم بنائه له على نسق واحد، وأنه يتأرجح بين درجات البلاغة ومزالق الركاكة، فلذلك جعل أبو حيان معرفة الصاحب بالبلاغة متذبذبة يعتريها جنون مخالفة النسق، و"إذا كان الجنون يشكل حقيقة المعرفة، فلأن هذه المعرفة بلا قيمة"[23]. ولعل ما أورده التوحيدي في الحكم على ابن عباد بجنون الكلام، يدخل ضمن المثالب التي أحصاها عليه في مؤلفه الموسوم بـ "مثالب الوزيرين" أو "أخلاق الوزيرين".

وقد نقل التوحيدي عن ابن زُرْعَة كلاما دقيقا عقد فيه مقارنة ضافية بين العقل والجنون، يقول: "إنّ المجنون مشارك للعاقل في الجنس، فإذا كان من العاقل ما يُحسَبُ أن يكون من المجنون كُرِهَ ذلك له، وإذا كان من المجنون ما يُعْهَدُ مِن العاقل تُعُجِّبَ مِنْهُ، والعقل بين أصحابه ذو عَرْضٍ واسع، وبقدر ذلك يتفاضلون التّفاضلَ الذي لا سبيل إلى حصره، وكذلك الجنون بين أهله ذو عَرْضٍ واسع، وبحسب ذلك يتفاوتون التّفاوتَ الذي لا مَطْمَعَ في تحصيله"[24] ولعل أبرز فكرة ترتسم في ذهن المرء عند قراءة هذا النص، هي أن الجنون والعقل يشتغلان معا ويشتركان في جنس الإنسان عاقلا كان أم مجنونا، فما بدر من جنون العاقل كان مكروها، وما صدر من تعقّل المجنون كان مدعاة للتعجب، كما أن التفاضل بين العقلاء في العقل شبيه بالتفاوت بين المجانين في الجنون من حيث الحدود التي تستعصي على الضبط، وتتأبى على الحصر. وتبعا لذلك فـ"إن العقل الحقيقي ليس خالصا من كل تواطؤ مع الجنون.إن الأمر على العكس من ذلك، فعلى العقل أن يسلك نفس السبيل التي يرسمها له الجنون"[25]. وقد تنبّه النيسابوري إلى تداخل مسلكيْ العقل والجنون فقال: "وكما شاب [الله] صفات أهل الدنيا بأضدادها، كذلك شاب عقلهم بالجنون فلا يخلو العاقل فيها من ضرب من الجنون"[26].

22- أبو حيان التوحيدي (حوالي 414هـ)، الإمتاع والمؤانسة ، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، دط، دت ، 61/1. وتجدر الإشارة إلى أن أبا حيان وصف أحد الشعراء بقوله: " وأما ابن جَلَبات فمجنون الشّعر، متفاوت اللّفظ...". ينظر: المرجع نفسه، 135/1.

23- ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مرجع سابق، ص: 45.

24- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سابق، 204/2.

25- ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مرجع سابق، ص: 55.

26- النيسابوري (406هـ)، عقلاء المجانين ، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1985م، ص: 8.

الجنون بين الخفاء والتّجَلّي

قال ابن الجوزي: " قَالَ أَبُو مُحَمَّد بن عُجَيْف: مرَّ بي مَجْنُون، فَقلت: يَا مَجْنُون! قَالَ: وَأَنت عَاقل؟ قلت: نعم؛ قَالَ: كلانا مَجْنُون، وَلَكِن جنوني مَكْشُوف وجنونك مَسْتُور؛ قلتُ: فَسِّرْ لي، قَالَ: أَنا أَخْرِقُ الثِّيَاب وأَرْجُم، وَأَنتَ تَعْمُرُ دَارا لَا بَقَاء لَهَا، وتطيل أَمَلَك، وَمَا حياتك بِيَدِك، وتعصي وَلِيَّكَ، وتطيع عَدُوَّكَ"[27].

لا يعلن الجنون عن نفسه من الوهلة الأولى، إنه يضع أقنعة العقل الخادعة ويتستر خلفها، إنه "لا يكشف سوى عن الوجه الآخر للأشياء، وعن جوانبها المظلمة، وعن التناقض المباشر لحقيقتها"[28].

فأفعال العاقل وإن بدت-ظاهريا- مخالفة لأفعال المجنون، غير أن باطنها يخفي جنونا يخالف العقل، ففي ضوء النص السابق؛ كل انشغال بالدنيا عن الآخرة يعد جنونا، وليس الجنون مجرد أفعال تُرى ويُحكمُ في حضورها على صاحبها بالجنون.إن المُفَسِّر في النص السابق مجنون عاقل، والمُفسَّر له: عاقل مجنون، أي أن العاقل الحقيقي من يتعظ ويهيء نفسه لثواب الآخرة بمضاعفة الأعمال الصالحة، بدل أن يتهالك على دنيا فانية، ويتهافت على تحصيل منافع زائلة يخدعه شيطانه (عدوّه)، ويغفل عن إرضاء خالقه، والسعي إلى نيل المغفرة من ذنوب تراكمت ومعاص تفاقمت.

لا أحد يسْلَمُ من الجنون وفقا لعبارة: (كلانا مجنون)، ولكن الجنون المتخفّي أشد خطرا على المرء من الجنون الظاهر، لأن الثاني رهين أفعال مرئية، أما الأول فرهين النوايا، وحبيس الحجب والرغبات الدفينة. وإلا "فكيف يمكن التمييز داخل فعل بالغ الحكمة قام به مجنون، وبين أبشع أشكال الجنون الصادرة عن رجل يُنظَرُ إليه عادة أنه حكيم وسَوِيّ؟"[29]

خاتمة:

27- ابن الجوزي (597ه)، أخبار الأذكياء ، بعناية: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2003م، ص: 268.

28- ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مرجع سابق، ص: 52.

29 المرجع نفسه،ص: 56

قال الجاحظ: "أنشدني إبراهيم بن هانئ وعبد الرحمن بن منصور:

جنونك مجنون ولست بواجدٍ ** طبيباً يداوي من جنون جنون"[30]

لو كُتِبَ للجاحظ أن يُبْعَثَ من جديد، لشهد بأمّ عينه (التي ستجحظ أكثر من ذي قبل) "جنون الجنون" الذي أورده في البيت السابق، وهو الوصف الذي يسري على طبيعة الحياة في عصرنا الحاضر، العصرِ الذي بلغ الذروة في جنون الجنون، إذ "لو استطعنا أن نستعير عقل المجنون، لوجدنا أن العالم هو المجنون"[31]. وذلك بالنظر إلى جنون الإنسان المعاصر وما ولّده من حروب وقلاقل تلتهم في طريقها كل مبادئ الإنسانية وتكشف عن أزمة عميقة في العيش دون نبذ أو عنف أو إقصاء للآخر.

يقول سعيد بنكراد: "إن جزءا كبيرا من ساكنة المعمور قد فقد عقله منذ زمان بعيد، فالكثير منا يعْمَهُ في الجنون في غفلة من نفسه ومن الآخرين.فالأبله والبليد والغبي والمعتوه والمتخلف والأحمق، هؤلاء جميعا مجانين (...) تماما كما هو المكتئب والمهووس والسوداوي والهستيري (وهي أقسام الجنون الأربعة التي يعترف بها الطب)"[32].

وإذا أمعنا النظر في كلام بنكراد ، مستحضرين تصور فوكو للجنون باعتباره شكلا من أشكال العقل[33]، ومستشهدين ببيت بديع الزمان الهمذاني :

لا تُكْذَبَنَّ بِعَقْلٍ *** ما العَقْلُ إلاَّ الجُنُونُ"[34]

أمكننا أن نقول إن العالم الذي نعيش فيه اليوم يشهد انتشارا منقطع النظير لأشكال من الجنون لانهائية وغير متوقّعة ولا حدّ لها، يفرزها العقل في اشتغاله أكثر مما يفرزها في

30- الجاحظ ، كتاب الحيوان، مرجع سابق، 109/3.

31- إبراهيم الكوني، أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) ، بيروت، دار النهار للنشر، ط1، 1999م، ص: 12.

32- ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مرجع سابق، مقدمة المترجم، ص: 16.

33- المرجع نفسه، ص: 54.

34- محمد محي الدين عبد الحميد، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني (398هـ)، القاهرة، مطبعة المدني، ط2، 1962م، ص: 90. وفي الهامش رقم (3)، وضّح الشارح معنى البيت بقوله: "أي لا تصدّقْ مَن يقول لك إن نوال أغراضك بالعقل؛ فإنه ليس الشيء الذي يُنيلك كلَّ ما تريد إلا الجنون".

اختلاله، حتى لكأن الأصل في سلوكاتنا وأفعالنا وأقوالنا هو الجنون، بينما يمثل العقل في لحظات معينة، ومواقف نادرة، استثناء مرهقا ومتعبا يزيد من تعقيد إمكانية التواصل مع الآخر، مما يجعل عالمنا المضطرب منبعا لجنون كبير يعتريه جنون صغير (العقل)، إلى درجة تستوجب إعادة النظر في الحكم على الماكثين بالمصحات العقلية بالجنون، في حين يتمتع غيرهم بممارسة الجنون خارج هذه المصحات دون أن يشعروا بجنونهم ودون أن يشعر بهم أحد، ذلك أن "العالم مستشفى كبير للأمراض العقليّة، أسوأُ ما فيه أنّ رُوَّادَهُ، عكس رُوّاد المصحّات العقلية، يسيرون طُلَقاءَ"[35].

وتبعا لما سبق ارتأينا أن يكون شعار العيش في زمننا نابعا من حكمة يتبادل فيها العقل والجنون أدوارهما الفاعلة، ويحتل التفكير بالجنون و في الجنون وسيلة ناجعة لفض نزاعات العقل وحل معوصات إشكالاته تحت مظلة يحتمي بها على السواء مجانين العقلاء وعقلاء المجانين:"أيها الجنون أنت عَقْلُ هذا العصر"!

مُلحَق:

مُتون بيْن وسْم العقْل ووشْم الجُنون

د.فيصل أبو الطّفيل: المغرب

1- أيها الجنون، أنت عَقْلُ هذا العصْر!

2- يقول العاقل: ليس بين الجنون والعقل سوى ومْضةٍ لائحة!

فيعلِّقُ المجنون: ما أشبهَ اليومَ بالبارِحة!

3- أيُّهما أعقلُ: مجنون في السّرّ؟ أم عاقلٌ في العلانية؟

4- هزْل العقْل- مأساة الجنون.

جِدُّ الجنون- ملْهاة العقْل.

5- كما أنّ الشّيخوخةَ للشباب سِياط، فإنّ العقْلَ للجنون قِماط.

35- إبراهيم الكوني، الناموس (الجزء الأول)، بيروت، دار النهار للنشر، ط1، 1999م، ص: 13.

6- الصّدْمة: نقطة تَماسّ بين انْخِطاف العقل وانعطاف الجنون.

7- يقْبَعُ الجنون في زنزانة انزياح العقْل.

8- مِفْتاحُ زنزانة العقْل في حوْزةِ جَلّاد اسمهُ الجنون.

9- العقْل انعكاس خادع لِمرآةِ الجنون.

10- شيخوخة العقل إيذانٌ بعوْدة الجنون إلى صِباه.

11- أليْسَ مِن الجنون أنْ يُحاكَمَ المجنون في محكمة العاقِل؟

12- الجنون مسجون مظلوم في مُعْتَقَلِ العقْل.

13- تقول الحكمة الخالدة: سيّد العُقلاء وسيّدُ المجانين، كِلاهُما وجهان لِعُمْلةٍ واحدة.

14- الخروجُ مِنْ تِيهِ العقْل محفوفٌ بالوقوع في قبْضةِ الجنون.

15- يا سيّدي اسْمعْ مِنّي الحقيقة: أنا مجنونٌ بالسّليقة، فأيْنَ عُقلاءُ الخليقة؟

16- الجوابُ السريعُ أوّلُ عتبات الجنون.

17- سؤال: مَنْ هو الأحمق؟ الجواب: اسْأَلْ نَفْسَك!